# الذات راصدةً موضوعيّة العالم؛ شارع الأميرات أنموذجا

**أ. عبد الوهّاب الشّتيوي– جامعة منّوبة/ تونس**

**الملخص:**

بحثُنا هذا يتعلّق بخصائص كتابة السّيرة الذّاتيّة عند الكاتب الفلسطينيّ العراقيّ جبرا إبراهيم جبرا منْ خلال كتابه "شارع الأميرات"، وقد أقمناه على مدخل حدّدنا فيه إطار البحث، ثمّ تطرّقنا في التّمهيد إلى كتابة السّيرة الذّاتيّة في الآداب العالميّة والأدب العربيّ وتعريفها بإيجاز، ومنه مررنا في العنصر الثّاني إلى البحث في تجليّات حضور أهمّ عناصر السّيرة الذّاتيّة التي اشترطها نقّاد هذا الجنس الأدبيّ في هذا الأثر، وعملنا أثناء ذلك على إبراز جدليّة الذّاتيّ والموضوعيّ لتكون السّيرة الذّاتيّة سيرة شخص يتفاعل مع واقعه المعيش بشكل كبير يتأثّر به ويؤثّر فيه، ومنها تتحقّق فرادة هذا الأثر، ثمّ ختمنا البحث برصد أهمّ النّتائج.

**الكلمات المفتاحيّة:** السّيرة الذّاتيّة . الذاكرة . الاستباق . الذّاتيّ. الموضوعيّ. التبئير.

**Résumé**

La présente étude porte sur les caractéristiques de l'écriture biographique chez l'écrivain palestinien-irakien Jabra Ibrahim Jabra, dans son livre «La rue des Princesses». Elle comprend une introduction où nous avons déterminé le carde de cette recherche, un premier item où nous avons défini la biographie d'une manière concise et un second où nous avons exploré les manifestations, dans cette œuvre, des principaux éléments de l'écriture biographique requis par les critiques de ce genre littéraire.

A cet effet, nous avons tenté de souligner la conciliation qu'opère Jabra entre, tantôt le respect rigoureux de ces éléments et tantôt son détachement afin de réaliser la littérarité de son texte et prouver son éminence dans l'écriture de la biographie.

Nous avons conclu cette recherche en en présentant les principaux résultats.



*University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras*
*http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/891*

**مدخل:**

يُعدّ الكاتب الفلسطينيّ العراقيّ جبرا إبراهيم جبرا منْ أهمّ رموز الحداثة في الفكر والأدب العربيّين، فكانت له مساهماته الكبيرة في عمليّة التّحديث شعرًا وروايةً ونقدًا وسيرة ذاتيّة، إضافةً إلى ما ترجم منْ كتب أجنبيّة إلى اللغة العربيّة لمدّ جسور التّواصل بين ثقافة عربيّة تقليديّة آن لها أنْ تتجدّد، وثقافة أجنبيّة وافدة آن لها أنْ تُقبل لتساهم في عمليّة التّجديد والتّحديث، ولمْ تقف مسيرته الإبداعيّة في الفكر والأدب على ما شاع في عصره منْ مجالات المقالات الفكريّة والكتابات الشّعريّة والقصصيّة، بلْ انخرط أيضًا في كتابة جنس أدبيّ سرديّ لمْ يُحظ بالاهتمام الكبير تأليفًا ونقدًا مقارنة بالشّعر أو الرّواية، هو جنس السّيرة الذّاتيّة الذي كتب فيه أثرين اثنين هما "البئر الأولى" (1989) و"شارع الأميرات" (1994).

وسنبحث في هذا المقال عنْ خصائص الكتابة السّيرة الذّاتيّة التي التزمها جبرا في أثره الثّاني "شارع الأميرات"، وجعلته من الكتّاب العرب الذين حذقوا هذا الفنّ، وساهموا في تأصيله في ثقافتنا العربيّة المعاصرة، ونبحث أيضًا عمّا ميّز هذا الكتاب فجعله محطّ بحوث ونقود، وعن الأدبيّة التي تحقّق لذّة القراءة في سيرة تاريخيّة لشخص حقيقيّ تتحوّل بفعل الإبداع إلى عمل أدبيّ، معرّجين على أهمّ دوافع الكتابة ومقاصدها، وعلاقة هذا الأثر الذّاتيّ بالعالم الموضوعيّ الذي شغلت الكاتبَ بعض قضاياه.

**I.تمهيد:**

تُعدّ السّيرة الذّاتيّة من الأنواع السّرديّة التي ازدهرت في القرن العشرين في الآداب العالميّة كلّها، وهي عند بعض النّقّاد "شكل منْ أشكال التّعبير خاصّ بالثّقافة الغربيّة، وكلّ منْ يكتب سيرة منْ غير الغربيّين، إنّما هو مقلّد لهم متأثّر بثقافتهم، وهو أمر يمكن قبوله . دون تعصّب قوميّ . إذا فهمنا السّيرة الذّاتيّة بمعناها الفنّيّ الحديث"(1)، أمّا ظهورها فكان بسبب تنامي النّزعة الذّاتيّة في الثّقافة الغربيّة الحديثة بظهور الفلسفة الوجوديّة والأدب الرّومنطيقيّ "وعماد ذلك كلّه هو اعتبار علاقة الفرد بذاته أهمّ منْ علاقته بالكون وبالإله [...] ولمْ يعدْ الحديث عن النّفس مشروعًا مذمومًا يجب الاعتذار له، بلْ أصبح بالأحرى موضوع فخر"(2)،



University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/891

لكنّ نقّادًا آخرين لا يقرّون بالأمومة الغربيّة المطلقة للسّيرة الذّاتيّة مثل يحي إبراهيم عبد الدّايم الذي استعرض عددًا كبيرًا من الآثار الأدبيّة العربيّة القديمة التي يصنّفها ضمن فنّ السّيرة الذّاتيّة (3) رغم إقراره بأنّ هذا المصطلح حديث النّشأة منْ خلال قوله: "وقد عرف القدماء [...] الأشكال الرّئيسيّة للتّرجمة الذّاتيّة، كما عرفوا التّرجمة الذّاتيّة المصوغة في شكل قصصيّ، بيد أنّهم لمْ يعرفوا المصطلح الذي أسماه العرف الحديث التّرجمة الذّاتيّة"(4)، "ولمْ يكنْ القدماء يعرفون بطبيعة الحال هذا المصطلح، رغم أنّهم كتبوا عنْ أنفسهم كتابات تنتمي إلى ما نسمّيه اليوم "بالتّرجمة الذّاتيّة"(5)، ثمّ تطوّرت الكتابة فيها بشكل واضح منذ بداية القرن العشرين مع جيل منحها أصالة في التّعبير وصدقًا وأوقعها "في أنفس القرّاء موقعًا حسنًا على نحو ما صنع [...] أحمد أمين ومحمّد حسين هيكل وعبّاس محمود العقّاد وطه حسين وزكيّ نجيب محمود وأنيس منصور"(6).

ولمْ يقتصر اختلاف الدّارسين والنّقّاد حول تاريخيّة السّيرة الذّاتيّة، ومدى تأصّلها في الثّقافة العربيّة، بلْ اختلفوا أيضًا حول تعريفها، فقد عرّفها "ستاروبنسكي" بقوله: "هي سيرة شخص يرويها بنفسه"(7)، وعرّفها "فيليب "لوجون"(Philippe Lejeune): "السّيرة الذّاتيّة سرد استعاديّ نثريّ يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركّز على حياته الفرديّة، وعلى تاريخ شخصيّته"(8)، وانخرط النّقّاد العرب في هذا الاختلاف، وأشاروا إلى صعوبة وضع تعريف جامع مانع دقيق وذلك بسبب "مرونة هذا الجنس الأدبيّ وضعف الحدود الفاصلة بينه وبين الأجناس الأدبيّة الأخرى، ممّا يجعله قادرًا على التّحوّل بينها بحريّة"(9)، ولعلّ التّعريف الذي وضعته تهاني عبد الفتّاح شاكر يكون الأكثر دقّة ووضوحًا(10)، فتقول: "السّيرة الذّاتيّة حكي استعاديّ نثريّ، يتّسم بالتّماسك، والتّسلسل في سرد الأحداث يقوم به شخص واقعيّ عنْ وجوده الخاصّ، وذلك عندما يركّز على حياته الفرديّة، وعلى تاريخ شخصيّته بصفة خاصّة، ويُشترط فيه أنْ يصرّح الكاتب بأسلوب مباشر أو غير مباشر أنّ ما يكتبه هو سيرة ذاتيّة"(11).

وضمن هذا النّوع الأدبيّ (أو الجنس) شقّ جبرا إبراهيم جبرا طريقًا للكتابة مدفوعًا بعدّة أسباب، ساعيًا إلى تحقيق جملة من المقاصد، ولعلّ الدّافع الأساسيّ ما ذكر في مقدّمة "شارع



University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/891

الأميرات" منْ أنّ صديقًا له يرأس تحرير مجلّة عربيّة شهيرة طلب منه كتابة بعض المقالات التي يروي فيها بعض تجاربه الحياتيّة، فوافق عليه، وقد قال في مقدّمة الكتاب: "حين فكّرت في وضع هذا الكتاب، كنتُ أستجيب لطلب صديق لي يرأس تحرير مجلّة أسبوعيّة رائجة، اقترح أنْ أكتبَ له عددًا من المقالات أتحدّث في كلّ منها عن تجربة من تجارب العمر".(12)، لكنّ هذا الدّافع وحده غير كافٍ لكتابة سيرة ذاتيّة لأنّه دافع خارجيّ غيريّ، ولا بدّ منْ وجود دوافع داخليّة ذاتيّة لكيْ يتحقّق فعل الكتابة، ونعتقد أنّ أهمّها رغبة الكاتب في إبراز مسيرة نحت وجوده وجعل نفسه نموذجًا جديرًا بالاحتذاء منْ قبل المقبّل، والسّعي إلى مقاومة الزّمن الذي يسير إلى الأمام منذرًا بالموت والفناء، والعودة إلى الزّمن الماضي تذكّرًا واستمتاعًا وتأمّلاً وتقويمًا، واستحضار الأحداث والعلاقات التي كانت في نظره "مدهشة، عارمة بروعاتها ومؤشّراتها"(13)، إضافةً إلى ربط الحياة الذّاتيّة بالحياة الموضوعيّة آنذاك وقد بدت لأهلها "كأنّها في تطلّعاتها وزخمها الاجتماعيّ عصر ذهبيّ يحاولون تلمّس سحره قبل أنْ يتلاشى، وهو يتماثل في الذّهن كحقبة منْ أغنى حقب المجتمع العربيّ المعاصر"(14)، وإبراز نجاح ذلك النّموذج الإنسانيّ في تلك الظّروف الاجتماعيّة القاسية، والظّرف التّاريخيّ المتشعّب الذي مرّت به الأمّة العربيّة، ومساهمته القيّمة في مسيرة الحداثة في خمسينيّات القرن الماضي.

## II.خصائص السّيرة الذّاتيّة في "شارع الأميرات":

إنّ التّعامل مع "شارع الأميرات" باعتباره كتاب سيرة ذاتيّة لمؤلّفها جبرا إبراهيم جبرا يفرض البحث الدّقيق عنْ كلّ خصائص الكتابة السّيرة الذّاتيّة المتوفّرة فيها، وملامحها التي تمكّننا منْ وضعها ضمن هذا النّوع الأدبيّ، وتمكّننا أيضًا منْ إدراج الكاتب ضمن كتّاب السّيرة الذّاتيّة المتقنين لهذا الجنس المخصوص.

### 1 . الميثاق السّيرذاتي (Le Pacte Autobiographique)

يشترط "فيليب لوجون" على مؤلّف السّيرة الذّاتيّة الالتزام بميثاق يربطه بالقارئ يسمّيه "الميثاق السّيرذاتيّ"، ويمثّل هذا الميثاق "تلك العقدة التي يبرمها المؤلف مع القارئ لغاية التأكيد على التطابق بين المؤلف والبطل والرجوع بكل شيء إلى الاسم الشخصي المكتوب على



University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/891

الغلاف"(15)، والقارئ يتعامل وجوبًا مع الأثر باعتباره سيرة ذاتيّة مثلما يتعامل مع القصّة والرّواية باعتبارهما نصًّا تخييليًّا، فـ"فيما يخصّ الرّواية يندفع للتّماهي مع تجربة خياليّة ولكنّه في السّيرة مدفوع بفضول معرفة حقيقة ما حصل للآخرين"(16)، ومنْ خلال هذا الميثاق يلتزم الكاتب بتقديم بعض الإشارات والعلامات التي تدلّ على أنّ "المؤَلَّفَ" هو سيرة ذاتيّة لشخصه الحقيقي التّاريخي ولحياته التي عاشها فعليًّا ويكتبها بنفسه، وقد تكون هذه العلامات ظاهرةً أو خفيّةً، أو مجتمعةً معًا، وهذه العلامات صنّفها خليل شكري هياس إلى صنفين سمّى الأوّل الميثاق السّير ذاتيّ، وسمّى الثّاني الميثاق المرجعيّ، ويتعلّق الأوّل بذكر عبارة "فصول منْ سيرة الذّاتيّة" على غلاف الكتاب، وذكر اسمه في بعض فصول الكتاب، ويتعلّق الثّاني بالإحالة على بعض كتاباته الإبداعيّة الأخرى(17).

ونجد في "شارع الأميرات" النّوعين معًا، فمن العلامات الظّاهرة التي تمثّل الميثاق السّيرذاتيّ نذكر عبارة "فصول من سيرة ذاتيّة" على غلاف الكتاب تحت العنوان الرّئيس للأثر، والعناوين الفرعيّة مثل عنونة الفصل السّادس بـ"لميعة والسّنة العجائبيّة"، ولاشكّ أنّ لميعة التي استحوذت على أهمّ أركان هذا الفصل هي زوجته العراقيّة التي أحبّها وارتبط بها وجذّرت انتماءه إلى العراق، وقد اهتمّ هذا الفصل ببداية التّعارف بينهما وكانت هذه السّنة بدء المشوار بينهما، وكانت فيصلاً مهمًّا في حياته كلّها، إضافةً إلى أنّ جبرا أعلم القارئ بوضوح تامّ في المقدّمة بأنّ كتابه هذا هو فصول تؤرّخ لحياته الشّخصيّة بين سنتي 1939 و1952 فوضعه بنفسه في مكانه منْ كتب السّيرة الذّاتيّة، وأوضح السّبب الأوّل للكتابة وهو الاستجابة لطلب صديق له يرأس تحرير مجلّة أسبوعيّة طلب منه أنْ يكتب له مقالات يذكر فيها بعض تجارب حياته، فتحوّلت المسألة إلى كتابة سيرة ذاتيّة، إضافةً إلى أنّه يذكر اسمه الشّخصي في بعض أركان الكتاب، فندرك أنّ المؤلّف هو نفسه الشّخصيّة الفاعلة المتحدّث عنها، وهو ما نقرؤه في الفصل الرّابع حين يقول: "رفعت عينيّ عن الكتاب الذي بين يديّ، وإذا بي أرى إلى جانبي رجلاً يمدّ يده إلى كتاب آخر، وينظر في الوقت نفسه إليّ متسائلاً، فهتفتُ: "روبرت". وأجاب: جبرا !"(18)، وذكر التّفاصيل التي تحيل عليه مثل ذكر سنوات ميلاده والتّخرّج من الجامعة والذّهاب إلى إنجلترا والولايات المتّحدة الأمريكيّة والذّهاب إلى بغداد وبيروت، وذكر



University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/891

الاسم الكامل للزّوجة وتاريخ الارتباط الفعلي بها عبر الزّواج، حيث يقول: "حالما رآني القاضي عبد الحميد الأتروشي، رحّب بي. فقد كنتُ أسلمتُ على يديه قبل أيّام، ولم ينسني. وبعد التّعرّف على لميعة والشّاهدين، وقراءة الاستمارات التي ملأناها، انتبه إلى مبلغ البائنة المذكور في الشّهادة التي سيوقّع عليها. فرفع رأسه وقال: "يا لميعة برقي شوقي العسكري، هل تعرفين أنّ مهرك المقدّم دينار واحدٌ، ومهرك المؤخّر ديناران اثنان"(19).

أمّا العلامات الخفيّة التي تمثّل الميثاق المرجعيّ فنجد إحالته على بعض كتاباته التي أبدعها في الفترة الزّمنيّة المسرودة في هذا الأثر مثل قوله: "بعض الحديث، وضعته، بشكل ما في رواياتي، وبعضه جعلته مبثوثًا في دراساتي وحواراتي، ولكنّ معظمه سيبقى في انتظار منْ له القدرة والصّبر والحبّ لاستقرائه منْ أوراق ورسائل ومصادر أخرى لا حصر لها هذا إذا لمْ تبدّدها الرّوابع، أو تغرقها السّيول، فتبقى على نحو يمكّن الدّارس من الرّجوع إليها في يوم ما، في زمن قريب أو بعيد"(20)، ومثلها الأحداث العامّة التي حدثت في تلك الفترة الزّمنيّة التي واكبها جبرا عنْ كثبٍ في فلسطين والعراق خاصّة.

وبهذين الصّنفين يتدعّم القول بحرص جبرا إبراهيم جبرا على الالتزام بأهمّ شروط كتابة السّيرة الذّاتيّة منْ جهة أولى، وبكون كتابه يُصنّف وجوبًا ودون شكّ ضمن هذه الكتابة منْ جهة ثانية، وقد أوفى بالوعد الذي أخذه على نفسه في مقدّمة الكتاب مع القارئ، والتزم بالعهد الذي أبرمه مع صديقه الذي طلب منه تأليف هذه النّصوص.

### 2 . وحدة أعوان السّرد (Les Instances Narratifs)

أعوان السّرد في أنماط الكتابة السّرديّة ثلاثة وهم المؤلّف والرّاوي والبطل، وقد أكّد نقّاد السّرد وجوب اتّحادهم في جنس السّيرة الذّاتيّة(21)، ولمْ يشذّ جبرا إبراهيم جبرا عنْ هذه القاعدة البنائيّة في "شارع الأميرات" فهو يخبرنا في المقدّمة . مثلما أشرنا إلى ذلك سابقًا . بأنّ كتابه كان تنفيذًا لرغبة أحد أصدقائه، أيْ إنّه هو الذي سيروي بنفسه حياته الشّخصيّة، فاعتمد ضمير "الأنا" ليحصل بذلك التّكامل بين "أنا" المؤلّف و"أنا" الرّاوي وينتج عنْ ذلك أيضًا تكاملهما مع "أنا" البطل، وكلّهم في النّهاية شخص واحد هو شخص جبرا إبراهيم جبرا بين سنتي 1939 و1954 خاصّة، مع الانفتاح جزئيًّا على بعض التّفاصيل الممتدّة إلى سنة



University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/891

1994، وقد ذكر الكاتب كثيرًا من التّفاصيل عن حياته الطّويلة المتشعّبة وتجاربها المختلفة في الزّمان والمكان مثل الدّراسة من حيث مستوياتها وشهاداتها وأماكنها، والعمل والعلاقات الأسريّة والوظيفيّة والصّداقات وعلاقات الحبّ، ويثبت التّكامل بين هذه "الأنوات" الثّلاثة عبر الميثاق السّيرذاتي الذي يفترض وجود الثّقة بين المؤلّف والقارئ، واطمئنان الطّرف الثّاني لحقيقة ما يصدر عن الطّرف الأوّل، ولذا يقول شكري المبخوت: "والطّريف أنّ هذه المنزلة الرّفيعة التي يحتلّها الاسم في السّيرة الذّاتيّة تعود في جانب منها إلى ضرب من التّعاقد والتّواطؤ بين المؤلّف وقارئه، إذ يسلّم القارئ بوجود المؤلّف وإنْ لم تربطه به صلة معرفة مباشرة في الواقع الاجتماعي، فهو يكتفي بتصوّره انطلاقًا ممّا يكتبه ويحدّده على أنّه منتج الخطاب الذي يتقبّله"(22).

وقد لا يكفي الاطمئنان إلى تصنيف الأثر ضمن السّيرة الذّاتيّة منْ خلال اعتماد ضمير "الأنا" في السّرد باعتبار أنّنا نجد بعض النّصوص القصصيّة والرّوائيّة تعتمد هذا الضّمير دون أنْ تكون سيرًا ذاتيّة، ولذلك وجب البحث عنْ بعض العلامات النّصيّة الأخرى الدّالّة على أنّ السّارد والبطل هما المؤلّف نفسه، ومنها أنّ جبرا يذكر اسمه صراحة في بعض ثنايا الكتاب(23)، "ولما كان الضّمير النّحويّ لا يحلّ إشكاليّة التّطابق بين السّارد والشّخصيّة موضوع الحديث، والمؤلّف الذي يشهد اسمه الموجود على الغلاف، فقدْ حرِص جبرا –وهو الأستاذ الأكاديميّ والرّوائيّ المطّلع اطّلاعاً كافياً على أساليب الكتابة الإبداعية – على التّأكيد بأنّ ما يكتبه هنا إنّما هو جزء من التّجارب التي عاشها، وذلك منْ خلال منح البطل اسمه الشخصي (جبرا) والتّصريح به في النّصّ أكثر منْ مرّة، وهو بهذا إنّما يخلق نوعًا من التّماهي والتّوحّد بين السّارد والشّخصيّة المركزيّة والمؤلّف الذي يشهد اسمه على وجوده"(24).

### 3 . الذّاكرة أداةً للسّرد:

إذا كان التّخييل أداة الكتابة في القصص والرّوايات فإنّ الذّاكرة وحدها أداتها في السّيرة الذّاتيّة باعتبار أنّ الكاتب يستقي الأحداث كلّها من ماضي حياته التّاريخيّة الفعليّة، فيعود لحظة الكتابة إلى لحظة الفعل والحدث متذكّرًا ما مضى، ويكون فعل السّرد متّجهًا إلى الماضي، ورغم أنّ ذاكرة الإنسان ضعيفة بطبعها وبفعل الزّمن الذي يفعل فعله فيؤدّي إلى النّسيان،



University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/891

لاسيّما وأنّ أغلب الكتّاب يدوّنون سيرهم بعد مضيّ زمن طويل منْ وقوع الأحداث، وذاكرة الإنسان مهما تكن قويّةً فهي "مترجرجة قلّب خؤون"(25) فإنّ كاتب السّير الذّاتيّة مجبر على اعتمادها المصدر الرّئيس للمادة الحكائيّة، ولذلك يقول "جورج ماي": "ورغم أنّ ذاكرة الإنسان، حينئذ، رديئة فلا ينبغي علينا، نتيجة لذلك، أنْ نستغني عنها وأنّى لنا ذلك. ومن ثمّة ظلّ أغلب كتّاب السّيرة الذّاتيّة يقبلون بالأمر على علاّته، حتّى إنّ موضع اهتمامهم في معظم الأوقات لم يعد الحديث التّاريخي الذي عنه يتكلّمون وإنّما الذّكرى التي علقت بذاكرتهم، وهي ذكرى ربّما عراها شيء من الشّوه والنّقص"(26).

وبناءً على هذا المعطى المهمّ في السّيرة الذّاتيّة فقد استند جبرا إبراهيم جبرا في "شارع الأميرات" إلى ذاكرته يشحذها وينشطّها ليستخرج منها ملامح الوقائع والأحداث والشّخصيّات والأمكنة والأزمنة التي مرّ بها في تجارب حياته المختلفة، وقد وجدنا تكرار الجذر الاشتقاقيّ (ذ . ك . ر) مرّات عديدة في صيغ مختلفة، ومتراوحة بين الإثبات والنّفي، فالإثبات يتجلّى حين يكون الكاتب متأكّدًا من تاريخيّة ما يرويه، والنّفي يتجلّى حين يكون الكاتب متردّدًا في حكمه غير متأكّد، ونراه يستعمل الجذر (ن . س . ي) وهو المناقض للفعل الأوّل حين يتعلّق الأمر بحدث نسيه أو نسي بعض تفاصيله، وقد يستعمله للتّكتّم على الفعل أو الرّغبة في عدم التّفصيل، والبحث في "شارع الأميرات" يؤدّي بنا إلى تبيّن أربعة أنواع من الذّكريات:

**أ. صنف لا يتذكّر منه شيئًا أو لا يذكره:**

لمْ يورد جبرا إبراهيم جبرا تفاصيل كثيرة عنْ علاقته بأفراد عائلته في فلسطين، ولمْ يفصّل القول عنْ أحداث ارتبطت بالعائلة وأفرادها ومستوى عيشها وينتظر القارئ ذكرها وتفصيلها، وقد زعم أنّ الأمر يتعلّق بتركيزه على السّنة الدّراسيّة 1951 . 1952 في العراق وهي السّنة التي تعرّف فيها إلى لميعة العسكريّ وقد سمّاها السّنة العجائبيّة، رغم أنّ هذا السّبب غير مقنع لأنّنا نراه في بعض فصول الكتاب قد انصرف إلى تفصيل ذكريات غير ذات أهميّة كبرى في مسيرة حياته مثل تفصيله الحديث عن زيارته لمدينة نمرود الأثريّة وتعرّفه إلى "ماكس مالون" وزوجته "أغاثا كريستي"، أو تفصيله الحديث عن أصدقائه الكثيرين، والأمكنة التي تجوّل بينها،



University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/891

مثلما صرّح في موقع من الكتاب بكتابته قصيدة وصف فيها جمال إحدى تلميذاته المعجب بها والمعجبة به، ونسيان ما إذا كان قد أعطاها القصيدة أم لا، فيقول: "ولستُ أذكرُ إنْ كنتُ أعطيتها القصيدة. والأرجح أنّني "عقلت" واتّخذت الحذر، فلم أُطلعها عليها إلاّ بشكل موارب"(27)، مثلما نسي عدد زيارته لمدينة نمرود في صيف 1986(28).

**ب. صنف يذكره بإيجاز:**

نلمح هذا العنصر في ما تعلّق بعلاقة جبرا بالطّالبة الانجليزيّة "غلاديس نيوبي" التي كان لها تأثير كبير في حياته في الجامعة الانجليزيّة، ورغم هذه المكانة فقد أوجز الحديث عنها ولمْ يفصّل سرد ذكرياته معها، ولمْ يعطِها ما تستحقّ من العناية وهي التي أحبّت ذلك الطّالب الأجنبيّ الغريب المنحدر من أصل عربيّ فلسطينيّ، والقادم منْ عالم عربيّ شرقيّ يمارس عليه الرّجل الغربيّ ألوانًا من العنصريّة والتّمييز، وقدْ حَظي بصداقة حميمة مع هذه الفتاة الغربيّة التي تنكّرت لأصول حضارتها في التّفكير ووهبته الحبّ والاحترام والتّقدير، بلْ وآثرته على خطيبها الانجليزيّ أيضًا، ويكشف لنا مقطع من الكتاب حقيقة هذه العلاقة وهو يتعلّق بالوصف الدّقيق لمشهد ذلك اللّقاء الذي جمعه بها في العطلة الصّيفيّة بعد أنْ عادت من مدينتها بشمال "يوركشر" مع خطيبها، فيقول: "وقفزت "غلاديس" من مقعدها إليّ، ورفعت النّظّارات الكبيرة عن عينيها، واستقّرت هي ومعطفها المشمّعي المبلّل بين ذراعيّ، وكانت شفتاها حلوتين كفلقتي فاكهة باردة نديّة، تذوبان ولا تذوبان على شفتيّ"(29)، إضافةً إلى أنّه أوجز كلّ تفاصيل الحبّ الذي جمع بينهما بقوله: "كان الحبّ عاصفًا [...] يضجّ بالجسد كما يضجّ بالرّوح"(30).

**ج. صنف يتذكّره بوضوح، ويذكره بدقّة وتفصيل:**

ينبّه جبرا في مواقع كثيرة منْ كتابه إلى تميّزه بقوّة الذّاكرة التي مكّنته من الاحتفاظ بأحداث عديدة كان بالإمكان سقوطها منها، وتذكّر أصدقاء لمْ يرهم لمدد طويلة، فيوم زواجه تذكّر صديقه حلمي سمارة الذي جمعته به الحياة في منعطفات كثيرة، وقد قاسمه كثيرًا من المكان والزّمان والأصدقاء، فيقول: "تذكّرتُ كم من مراحل مهمّة في حياتي شاركني فيها هذا الصّديق



University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/891

الرّائع"(31)، وذاكرته أسعفته بوضع رسم لصورة للميعة رغمّ أنّها لمْ تكنْ أمامه: "وبقيتُ مشدودًا إلى ما رسمت من شبهٍ دقيقٍ، مدفوعًا بقوّة الذّاكرة"(32)، وأسعفته أيضًا بالتّذكّر الدّقيق لتواريخ تنقّلاته وزياراته مثل زيارته لمدينة نمرود العراقيّة عاصمة الآشوريين، فيقول: "بعد سنتين، وبالتّحديد في 22 آذار (مارس) 1951، أتيح لي أن أرى نمرود/كالح"(33)، وقد برّر هذه القدرة على التّذكّر الدّقيق بقوله: "وما زلت أذكر تاريخ تلك الزّيارة بالضّبط، لأنّها جرت في اليوم التّالي لأوّل أيّام الرّبيع، واقترن اليوم في ذاكرتي بتجربة عميقة الأثر في نفسي عند مشاهدتي أطلال حضارة من أروع حضارات التّاريخ العربي القديم فنًّا وعمرانًا"(34)، وتذكّر زيارته لمنطقة البحيرات بلندن وكيف تخيّل تلك المرأة الرّائعة الجمال تطلّ عليه مثل ربّة الشّعر وقد سمّاها سيّدة البحيرات، وعادت به الذّاكرة إلى مسقط رأسه بيت لحم يوم زارته السّيّدة اليونانيّة "كاتي انطونيوس" في بيتهم صحبة ابنتها ثريّا، فقام بوصف بيتهم بدقّة، وحين وصل إلى البساط المصنوع من شعر الماعز الأبيض والأسود، قال: "تذكّرتُ سالي كيف كانت تلاعب عليه كلبها الصّغير في يوم مضى في دارنا في القطمون"(35)، وتذكّر يومًا من أيّام حرب الخليج الثّانية (1991) التي سمّاها في كتابه العدوان الثّلاثينيّ، وكان فيه يتجوّل في شارع الأميرات ولمح وردة كبيرة فتوقّف وراح يتأمّل جمالها، ولسان حاله يقول منددًا بالعدوان القهر للإنسان: "هنا الحياة النّظرة، والوعد بالمزيد من النّظارة والحياة، ومن فوقنا الذّبابات اللّعينة، القادمة من أقاليم الكراهيّة والموت، تطنّ بنذر القتل والوحشيّة، وتطال بدمائنا"(36)، وتذكّر صديقه بـ"مايكل كلارك" الذي كانت له به علاقة صداقة في القدس حين كان جنديًّا في الجيش البريطانيّ قبل احتلال الصّهاينة لها، فيقول: "أمّا أنا فلم أنس أحدًا... وتذكّرت نادي الفنون بالقدس، الذي كنت رئيسًا له منذ أن أسّسناه عام 1944"(37).

وقد لا نجد أمرًا أصرّ جبرا على تذكّره بدقّة، وذكره بتفصيل وإسهاب خير منْ علاقته بلميعة وحياته معها، خاصّة ذلك اليوم الذي اعتبره مُحدث انقلابٍ في حياته كلّها، وقد قال عنه: "ونحن في آخر يوم من شهر آذار 1951: وهل أنسى ذلك التّاريخ الذي حسم لي مسار حياتي؟"(38)



University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/891

**د. صنف يسكت عنه:**

يشير جبرا إبراهيم جبرا في كتابه إلى معضلة يعاني منها جنس السّيرة الذّاتيّة وهي ضيق المجال عنْ سرد كلّ الأحداث والتّفاصيل، فيجد الكاتب نفسه مجبرًا على الاختزال والتّقصير والحذف والتّجاوز، لأنّه إن أراد سرد كلّ الوقائع احتاج إلى مجلّدات والزّمن ضنين بذلك، فيقول مثلاً: "غير أنّني هنا سأركّز على خيط رئيسي واحد من خيوط كثيرة تواشجت في نسيج تلك السّنة، يستحقّ كلّ منها، لو أتيح للمرء زمن لا ينتهي، متابعة خاصة لإبراز جمال النّسيج الكلّي وتعقيده". (ص116). كما يقول في آخر الكتاب: "ما تحدّثتُ عنه هنا ليس إلاّ السّنة العجائبيّة 1951 والسّنة التي تلتها وماثلتها: سنتان فقط تحدّثت عنهما هنا، وما أقلّ ما ذكرتُ"(39)

**4 . التّرتيب الزّمني للأحداث:**

تواجه السّيرة الذّاتيّة في هذا الباب مشكلاً حقيقيًّا، فهي منْ جهة أولى مطالبة باتّباع النّظام الزّمنيّ الخطّي السّائر من أوّل نقطة ماضية اختار الكاتب أنْ تكون نقطة انطلاق السّرد رجوعًا إلى الأمام لأنّها سيرة شخص عاشها في الماضي، وهي منْ جهة ثانية مطالبة بأنّ تتحرّر منْ هذا النّظام الصّارم الدّقيق كيْ تكون عملاً أدبيًّا إبداعيًّا فتحوز درجة الأدبيّة، ولا تكون مجرّد عمل تأريخيّ، وبسبب هذه الازدواجيّة نجد اختلافًا بيّنًا بين نقّاد السّرد حول التّرتيب الزّمنيّ الأمثل في السّيرة الذّاتيّة، فـ"أندريه موروا" يرى وجوب التزام كاتب السّيرة الذّاتيّة التّرتيب الزّمنيّ الخطّي الموافق لترتيب وقوع الأحداث في الزّمن الحقيقيّ، ويرفض أيّ استباق لأنّ ذلك يحرم القارئ . في نظره . لذّة القراءة التي تتحقّق منْ خلال التّشوّق لمعرفة الآتي، واكتشافه بنفسه، أمّا "ليون إيدل" فيرى عكس ذلك إذْ من الممكن أنْ تعتمد السّيرة الذّاتيّة الخلط بين الامتداد والاستباق، وهي تتّسع لكلّ أنماط التّرتيب الزّمنيّ وأنواع السّرد باعتبارها نصًّا إبداعيًّا يستند إلى حريّة الكاتب، ويختلف عن التّقرير الصّحفيّ المتعلّق بحياة شخصٍ ما(40).

ولعلّ جبرا إبراهيم جبرا آمن بالرّأي الثّاني في سيرته الذّاتيّة، فلمْ يلتزم بنمط واحد، وإنّما اتّبع أنظمة مختلفة بحسب ما فرضته عليه اللّحظة السّرديّة، وبحسب ما فرضته عليه طبيعة الحدث



University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/891

المسرود من استباق أو ارتداد، وقد وجدنا في "شارع الأميرات" أنظمة ثلاثة هي التّرتيب الخطّيّ، والتّرتيب الارتداديّ، والتّرتيب الاستباقيّ:

**أ. التّرتيب الخطّي:**

أولى جبرا إبراهيم جبرا هذا النّوع من التّرتيب العناية الأولى، فجعله الأكثر وضوحًا وانتظامًا في "شارع الأميرات" وذلك باعتبار أنّ السّيرة الذّاتيّة محكومة في الأصل بقانون سرديّ زمنيّ يفرض على المؤلّف أنْ يبدأ من البداية الطّبيعيّة الزّمنيّة لحياته، ليبلغ النّهاية التي ارتأى أنْ تتوقّف عندها عمليّة السّرد، وقد أكثر جبرا في هذا النصّ السّيرذاتيّ ذكر التّواريخ المتتابعة بتتابع الفصول والتي تمكّننا منْ تبيّن التّقدّم في الزّمن، والتّقدّم في الحياة، والتّعرّف إلى تطوّر هذا الشّخص من النّواحي التّعليميّة والمعرفيّة والوظيفيّة والعلائقيّة، فالفصل الأوّل بدأ سنة 1939 يوم كان جبرا يبلغ من العمر تسع عشرة سنةً، وهي السّنة التي أعقبت سنة نيله شهادة البكالوريا، والتي اندلعت فيها الحرب العالميّة الثّانية في أوروبّا، وغادر فيها وطنه فلسطين ذاهبًا إلى انجلترا لمواصلة الدّراسة الجامعيّة، والفصل الثّاني يتعلّق بسنة 1940 التي كانت أوّل سنة ينتمي فيها للجامعة الانجليزيّة، والفصل الثّالث في عطلة شتاء سنة 1940، والفصل الخامس تدور أحداثه في أواخر أيلول (سبتمبر) سنة 1948 حيث أنتدب للتّدريس في المعاهد العليا بالعراق، ثمّ في شهر نيسان من سنة 1949، ثمّ يقفز السّرد في الفصل السّادس والأخير إلى سنتي 1951 و1952 حيث يطلعنا المؤلّف على تفاصيل كثيرة تتعلّق بحياته في العراق والتي توزّعت بين العمل والبحث والأصدقاء وتأسيس الجمعيّات والنّوادي والمساهمة في المعارض والنّدوات العراق، ثمّ تعرّفه إلى الأستاذة العراقيّة لميعة العسكري التي أحبّها وارتبط بها في أوت 1952، وتوجّه بصحبتها إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة لمتابعة الدّراسة منْ أجل الحصول على شهادة في النّقد الأدبيّ.

**ب. التّرتيب الارتداديّ:**

إنّ التزام التّرتيب السّابق لمْ يمنع جبرا إبراهيم جبرا منْ اعتماد نظام آخر مغاير وهو التّرتيب الارتداديّ، فنراه كثيرًا ما يخالف حركة الزّمن الممتدّة نحو الأمام ويكسر النّسق ويوقف



University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/891

الزّمن مرتدًّا إلى الوراء راجعًا إلى الماضي لينشئ التّنسيق بين الأحداث القديمة والأحداث المستجدّة، ويعود بالتّالي إلى بعض المحطّات الزّمنيّة المهمّة التي وجد أنّها تستوجبُ استحضارًا واستعادة لعلّه تغافل عنْ ذكرها سابقًا، أو لمْ تشأ عمليّة السّرد ذكرها في حينها، ومنها تذكّره في الفصل الرّابع (أي سنة 1940) وهو في انجلترا اطّلاعه على الشّعراء الرّومنطيقيّين الإنجليز سنة 1938 حين كان في السّنة الأخيرة من دراسته في الكلّيّة العربيّة في القدس، ثمّ عمّق الارتداد بعودته إلى أيّام الطّفولة في القدس(41) والحافز لذلك هو التّشابه الكبير بين الطّبيعة في منطقة البحيرات بإنجلترا والطّبيعة في القدس، فنقرأ قوله: "وما إنْ نزلتُ في فندق صغير في بلدة "وندرمين"، القريبة من البحيرة المسمّاة باسمها، جاعلاً من الفندق منطلقي ومرجعي لجولاتي اليوميّة، حتّى ازدحمت في ذهني أخيلة ومشاعر وذكريات، بعضها يعود إلى أيّام طفولتي النّاضجة بتجربة الطّبيعة في أولى أشكالها: التّراب والصّخر، الوادي والجبل، الأشجار والأزهار البريّة "الحنون" والشّوك، مع زرقة السّماوات الرّحاب وانهمارات المطر، والغوص في الطّين، والاستسلام للرّيح والرّعد.."(42)، وفي الفصل السّادس(43) ذكر تشكيله رسم لمشهد رآه في الحلم في القدس سنة 1946 (أي بعد خمس سنوات)، وذكر في المقطع الثّاني من الفصل السّادس المخصّص لسنتي 1951 و1952 تعرّفه إلى "دنيس جونسون ديفيز" في لندن في خريف 1943، وتحدّث فيه أيضًا عن المفكّر المشهور "جورج أنطونيوس" الذي ألّف كتابًا عن الحركة القوميّة العربيّة والقضيّة الفلسطينيّة "يقظة العرب" سنة 1939(44)، وتذكّر أحوال القدس وإرهاب الصّهاينة المغتصبين إبّان النّكبة الأولى سنة 1948(45).

فهذه الشّواهد وغيرها دالّة على اِتّباع جبرا هذا النّمط من التّرتيب في "شارع الأميرات"، ممّا يثبت أنّ نظام السّرد في السّيرة الذّاتيّة عمومًا غير ملزم باتّباع النمط الامتداديّ وحده، والمؤلّف قادر بنظرته الإبداعيّة على تجاوز الحدود التّقعيديّة أحيانًا.

### ج. التّرتيب الاستباقيّ:

إنّ السّيرة الذّاتيّة المتعلّقة في الأصل بماضي حياة كائن بشريّ حقيقيّ مفرد له وجود تاريخيّ فعليّ، لا تمنع كاتب السّيرة الذّاتيّة في بعض سياقات السّرد منْ أنْ يجد نفسه مجبرًا على القيام ببعض الإشارات الزّمنيّة المحيلة على الزّمن المستقبل مقارنة بالزّمن المرويّ وهو الزّمن الماضي .



University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/891

مثلما أشرنا إلى ذلك سابقًا .، وقد اتّبع جبرا إبراهيم جبرا هذه الطّريقة في "شارع الأميرات"، فاستبق الزّمن المسرود ليذكر أنّه أعاد زيارة باريس سنة 1981 ثمّ تكرّرت الزّيارات في الثّمانينات ولم يجد أيّ أثر لصاحبة الدّار التي أقام عندها في أوّل مرّة ذهب فيها إلى فرنسا (46)، وذكر ما وقع له في مطار بيروت سنة 1961 مع ضابط التّفتيش الذي سأله عن مسرحيّة شكسبير "هاملت" لما وجدها في حقيبته(47)، ونشره روايتين فلسطينيّتين في لندن في أواخر الثّمانينات(48) وإقامة حفلات النّيشان والمهر والزّفاف صحبة زوجته لولديهما(49)، وتكرار الزّيارة إلى لبنان بين سنتي 1952 و1974 وانقطاع السّفر إليها بسبب نشوب الحرب الأهليّة اللّبنانيّة سنة 1975(50)، ونجاح صديقه الدّكتور علي كمال في مهنة الطبّ وتحقيق طموحاته العلميّة والإبداعيّة المرجوّة بعد ثلاثين عامًا من سنة 1952(51)، وإعادة زيارة موقع مدينة نمرود الأثريّة سنة 1986 أيْ بعد خمسة وثلاثين عامًا(52)، وحصوله على تخطيط هندسي لمنزله من المهندس رفعت الجادرجيّ سنة 1960(53)، وزيارة الهند والباكستان سنة 1988(54)، ونشوب حرب الخليج الثّانية سنة 1991(55)، وتجوّله مع حفيدته "ديما" في شارع الأميرات في أواسط الثّمانينات(56)، واكتمال سعادته بمجاورة أقرب أصدقائه له في شارع الأميرات في بداية السّبعينيّات(57)، ورئاسته تحرير مجلّة "فنون عربيّة" في بداية الثّمانينيّات(58).

وهذه الاستباقات تحيل على بعض خصائص تميّز جبرا في كتابة السّيرة الذّاتيّة منْ حيث الفصل النّاعم غير الظّاهر بين السّارد والبطل، فالبطل الذي يعيش الماضي لا يعلم ما سيحدث له في المستقبل، أمّا السّارد فهو يعلم كلّ التّفاصيل، ويحيط علمًا بالماضي والمستقبل، ويدرك كلّ جزئيّات الحكاية الشّخصيّة للبطل، والحكايات الفرعيّة لبقيّة شخصيّات "شارع الأميرات"، فهو يعلم مثلاً ما يدور في خلد لميعة العسكريّ حين التقت جبرا أوّل مرّة في قاعة الأساتذة في الجامعة إذْ يقول: "فالتفتُّ إلى السيّدة الجالسة على يميني وسألتها بالإنكليزيّة وبكلّ براءة، رأيها فيه، لأشركها في الحديث، فما كان منها إلاّ أنْ ازدادت عبوسًا، ودون أنْ تنظر إليّ أجابت: "لا أعرف عنه شيئًا" ولهجتها توحي بأنّها تقول: "لا تتشاطر عليّ!" ونهضت وتركتنا"(59)، وقد بيّنت له صديقتها ساهرة صدق إحساسه إذْ قالت إنّها كانت



University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/891

تمثّل(60)، واعترفت له لميعة أيضًا بعد ذلك بتجنّبها الحديث معه في تلك الفترة كيْ لا يشعر بانجذابها نحوه، "فقلت لنفسي، حين رأيتك لأوّل مرّة محاصرًا هكذا: "هذا رجل يجب أنْ أتجنّبه، لئلاّ يتصوّر أنّني أنافس هؤلاء السّخيفات باهتمامهنّ به"(61)، فيكون هذا السّارد ساردًا عليمًا شبيهًا بسرّاد الرّوايات(62)، هذا وقد أكّد "جيرار جينيت" أنّ هذه الاستباقات التي تجعل السّارد عليمًا أكثر من البطل أقرب إلى السّرد السّيرذاتيّ منها إلى السّرد الرّوائيّ(63).

### 5 . التّفصيل والإجمال والإخفاء:

إنّ ما أشرنا إليه في العنصر السّابق منْ جمع الكاتب بين أنظمة ثلاثة للسّرد يجعل الكاتب قادرًا على تفصيل القول في بعض الأحداث، لكنّه لا يستطيع أنْ يذكر كلّ شيء إمّا بسبب ضيق المجال، أو بسبب النّسيان، أو بسبب إخفاء بعض التّفاصيل غير المهمّة التي قد لا تنفع القارئ، أو قد تسيء إلى الأنا السّاردة أو إلى أحد الأشخاص، فتؤدّي هذه المراوحة إلى ملمح آخر منْ ملامح السّيرة الذّاتيّة وهو التّفصيل والإجمال والإخفاء، فالكاتب يراوح بين تفصيل سرد وإجماله وإخفائه، أو قدْ يكتفي ببعض التّلميحات المتعلّقة ببعض الأحداث، وقد برهن "جورج ماي" من خلال تتبّع بعض السّير الغربيّة على أصالة هذا المعطى، فيقول: "يقول "برليوز": "لن أقول إلاّ ما يحلو لي أنْ أقول"، وتقول "سيمون دي بوفوار": "سوف أتعمّد إهمال الحديث عن أشياء كثيرة"(64).

وانطلاقًا منْ ذلك يجد الدّارس لـ"شارع الأميرات" أنّ جبرا إبراهيم جبرا لمْ يحدْ عن هذه القاعدة الثّلاثيّة الأضلاع، ففي التّفصيل ذكر مراحل دراسته وأماكنها وزملاءه المقرّبين، وذكّر في المقطع الأخير برحلاته البحريّة الخمس، ثمّ كان التّركيز على أيّامه البغداديّة الرّائعة بين العمل في الجامعة ونشاطاته الفنيّة والأدبيّة، وعلاقات الصّداقة، وعلاقته العاطفيّة الاستثنائيّة بلميعة العسكري، وفصّل كلّ ما مرّ به من مراحل في علاقته بها بدءًا بالسّعي نحو التّقارب مرورًا بتثبيت العلاقة وإقناع كلّ المحيطين بها، وصولاً إلى تحقيق الزّواج في صائفة سنة 1952، ويكفي أنْ نقول: إنّ الحديث عن لميعة خُصّص له فصلٌ كاملٌ مطوّلٌ تفرّع إلى اثني عشر مقطعًا، وعنون باسمها حيث سمّاه "لميعة والسّنة العجائبيّة"، وقد امتدّ هذا الفصل السّادس من



University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/891

الصّفحة 107 إلى الصّفحة 267، أيّ إنّه استأثر بـ 160 صفحة تمثّل نسبة 59.92 % من صفحات فصول الكتاب، ويكفي للتأكيد على هذا التّفصيل أيضًا أنّ هذه النّسبة الكبيرة خصّصت فقط للفترة الزّمنيّة الممتدّة بين سنتي 1951 و1954، بينما خصّصت بقيّة الصّفحات وهي الممتدّة من الصّفحة 25 إلى الصّفحة 103 للفترة الزّمنيّة الممتدّة بين سنتي 1939 و1951.

أمّا الإجمال فتعلّق مثلاً بدراسته في القدس وعمله بها بعد عودته من إنجلترا لفترة ستّ سنوات كاملة امتدّت من سنة 1943 إلى سنة 1949، وأجمل أيضًا الحديث عن وسطه العائلي وعلاقته بإخوته وما عايشوا من أفراح وأتراح لاسيّما أثناء النّكبة الفلسطينيّة ومعاناتهم مع أبناء شعبهم منْ إرهاب العصابات الصّهيونيّة التي أطلق الاحتلال البريطانيّ أيديها لتنكّل بهم وتغتصب حقوقهم، وقرار تقسيم فلسطين بين العرب والصّهاينة من قبل هيئة الأمم المتّحدة سنة 1947، والحرب العربيّة الصّهيونيّة سنة 1948، ولمْ يفصّل أيًّا من الأحداث السّياسيّة المهمّة التي حدثت في البلاد العربيّة في الأربعينيّات والخمسينيّات من القرن العشرين والتي نفترض عمق تأثيرها في جبرا الكاتب المفكّر والمثقّف المتطلّع للحداثة والتّحرّر، عدا بعض الإشارات المقتضبة مثل قوله: "في تلك الأيّام قامت ثورة 23 يوليو في مصر، وشغلتنا جميعًا، كما شغلت العالم، وأدهشتنا وأفرحتنا بأنّها تمّت دون إراقة قطرة دم واحدة"(65).

أمّا الإخفاء الذي نعدّه صمتًا متعمّدًا فلعلّه يتعلّق بعلاقته بوالديه في بيت لحم، وعلاقته بقضيّة شعبه الفلسطينيّ، وانشغاله بالسّياسة في الوطن العربيّ التي أدّت إلى هزيمة العرب سنة 1948 ضدّ الكيان المحتلّ لأرض فلسطين، والسّياسة الاستعماريّة الدّوليّة التي شرعنت الاحتلال الصّهيونيّ، وسلطة الانتداب البريطانيّ التي تآمرت على الشّعب الفلسطينيّ وشرّدت آلافًا منه، وهو لأمر مستغرب من فلسطيني عاش مهجّرًا من وطنه المغتصب من قبل الغزاة، وفرضت عليه الإقامة الدّائمة في العراق، مثلما صمت عنْ تفصيل القول حول علاقة عاطفيّة مع فتاة فلسطينيّة عاشها في شبابه واكتفى بالإشارة إليها تلميحًا، وصمت عنْ ذكر أيّ شيء يتعلّق بالمستوى المادّيّ المعيشيّ لعائلته، والموارد المادّيّة التي مكّنته من السّفر إلى انجلترا لمواصلة دراسته في ذلك الظّرف التّاريخيّ العصيب الذي عاشه الشّعب الفلسطينيّ، ولمْ يذكر أيضًا



University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/891

بعض التّفاصيل التي نراها مهمّة حول حياته في الولايات المتّحدة الأمريكيّة، فمن المؤكّد أنّه تعرّض لصعوبات جمّة في مجتمع أمريكيّ لا يحمل فكرة موضوعيّة عنْ إنسان عربيّ فلسطينيّ.

### 6. الصّدق والجرأة:

لعلّ الصّدق والجرأة أيضًا منْ أهمّ شروط السيرة الذّاتيّة النّاجحة التي على الكاتب أنْ يلتزم بها لأنّها سرد لحياة شخصيّته التّاريخيّة، ورغم أنّ أغلب الدّارسين متّفقون حول صعوبة الصّدق في السّيرة الذّاتيّة واعتبارها "على الأرجح قضيّة زائفة، إذْ أنّ السّيرة الذّاتيّة، منْ حيث هي سيرة ذاتيّة، مجافية للحقيقة [...] ذلك أنّ كاتب السّيرة الذّاتيّة لا يستطيع مهما فعل أنْ يتخلّص من الحاضر الذي يكتب فيه ليلتحم بالحاضر الذي يرويه"(66)، ويعتقدون أنّ الصّدق مفقود إمّا بالحذف أو بالتّزيين والتّجميل أو مخالفة الحقائق التي يصعب تأكيدها بالحجة، ورغم ذلك فإنّنا نعتقد أنّ جبرا إبراهيم جبرا قد التزم الصّدق بنسب عالية في "شارع الأميرات"، ومن مظاهر ذلك إسهابه في سرد الجانب العاطفيّ منْ خلال تركيزه على علاقتيه المهمّتين بالطّالبة الانجليزيّة "غلاديس نيوبي" وزوجته العراقيّة الأستاذة لميعة العسكري، بلْ إنّنا نجده يشير أكثر منْ مرّة إلى التّمزّق العاطفيّ الذي عاشه بين هاتين المرأتين، إضافة إلى حديثه عنْ علاقة عابرة كانت له في العراق مع تلميذة وقد جمع بينهما إعجاب متبادل دون أنْ يصل إلى مرحلة الحبّ الحقيقيّ المكشوف، وكانت تبعث إليه بالرّسائل التي لم تسترجعها إلاّ بعد يومين أو ثلاثة منْ زواجه، وتجاوزت الجرأة مجاله العاطفيّ الشّخصيّ لتشمل المجال العاطفيّ الغيريّ، فقد ذكر بعض العلاقات العاطفيّة التي جمعت بين بعض أصدقائه وصديقاته، مثل قوله: "ولم ننسَ، ولو للحظة واحدة، أيًّا من أعزّائنا وأصدقائنا الذين تركناهم ببغداد. وانتبهنا إلى أنّ النّصف الثّاني من عام 1952 شهد لأفراد شلّتنا جميعهم ما هو أشبه بالنّهايات السّعيدة"(67)، وقد فصّل هذه العلاقات بجرأة أكثر حين ذكر تحوّلها إلى علاقات زوجيّة، فذكر الزّيجات التي جمعت ساهرة بأستاذ جامعيّ، والدّكتور عصام بأنيسة السّعدون، وجواد سليم بلورنا، وحلمي سمارة بإفلين دلالي، وبلند الحيدريّ بدلال المفتيّ، وعدنان رؤوف بسميّة الخفّاف، وروزمي بوكسر بيوسف صايغ (الأخ الأكبر لصديق جبرا الشّاعر توفيق صايغ)، ونزار سليم بآنسة ألمانيّة، وعدنان المحاميّ (منافس جبرا في حبّ لميعة) بامرأة أمريكيّة.



University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/891

ومنْ مظاهر جرأته أيضًا ما تعلّق بالمجال السّياسيّ، فقد امتدح ثورة 23 يوليو (جويلية) 1952 في مصر التي قضى فيها بعض العسكريّين على حكم الملك فاروق وعائلته التّركيّة، واعتبر حرب الخليج الثّانية بين العراق ودول التّحالف سنة 1991 عدوانًا ثلاثينيًّا، وأدان بشكل واضح مرّات عديدة التّواطؤ الاستعماريّ البريطانيّ مع الصّهاينة لاحتلال فلسطين حين سهّل استيلاءهم على الأراضي، وأغمض عينيه عن جرائهم المرتكبة ضدّ الشّعب الفلسطينيّ.

أمّا في المجال الفكريّ والأدبيّ فتجلّت جرأة جبرا إبراهيم جبرا في انتمائه إلى حركة الحداثة العربيّة في النّصف الأوّل من القرن العشرين، والدّور الكبير الذي لعبه في تحديث مجالات الفكر والأدب والفنّ صحبة بعض الرّفاق، فقد كان صاحب أنشطة متنوّعة ومبادرات كثيرة كانت تهدف إلى تحديث الحياة الثّقافيّة عامّة، إذْ أسّس عددًا من النّوادي والجمعيّات التي تسهم في نشر الثّقافة الحداثيّة في العراق، وكان معتزًّا بعقد الصّداقات المتينة مع رموز الحركة الحداثيّة، وفيًّا لها، فهو الصّديق الوفيّ للشّاعرين الحداثيّين بلند الحيدري وتوفيق صايغ، والمفكّر خلدون ساطع الحصريّ، والمهندس المعماريّ جواد سليم، وكان أيضًا منْ أهمّ مؤسّسي التّعليم الجامعيّ الحداثيّ في العراق.

## 7. التطابق بين الخبر والخطاب:

### أ. تاريخيّة الأحداث:

إنّ مؤلّف السّيرة الذّاتيّة ملزم بذكر الأحداث التّاريخيّة المتّصلة بشخصه هو أو المتّصلة بالعالم الموضوعي من حوله مثل أحداث أفراد عائلته أو أصدقائه أو وطنه أو العالم جميعًا، وهو المتعلّق بالزّمن المرجعيّ المرتبط بالميثاق المرجعيّ المشار إليه سابقًا، وبما أنّ السّيرة الذّاتيّة قصّة حقيقيّة واقعيّة لكائن تاريخيّ فهي مرتبطة بالزّمن التّاريخيّ الحقيقيّ الذي وُجد فيه، و"واقعيّة العالم السّيرذاتيّ تتحدّد إذنْ منْ أبرز جوانبها بواقعيّة متلفّظة وبواقعيّة العناصر المكوّنة لعالم الحكي، وهي الشّخوص والوقائع والإطار الزّمانيّ والمكانيّ، لذلك فإنّ المترجم لذاته مطالبٌ وهو ينشئ قصّة حياته بأنْ يعيد بناء فترة من الزّمن حقيقيّة"(68)، ومن الأحداث الشّخصيّة المثبتة بالتّاريخ الدّقيق ذهابه إلى مصر في رحلته نحو انجلترا في أوّل رحلة له خارج وطنه



University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/891

فلسطين، وكانت بعد أيّام من إعلان انجلترا وفرنسا الحرب على ألمانيا في 3 أيلول (سبتمبر) 1939، وانتماؤه إلى جامعة "اكستر" بجنوب إنجلترا في السّنة الدّراسيّة الأولى من تشرين الأوّل (أكتوبر) 1939 حتّى حزيران (جوان) 1940 ولم يكن قد أكمل العشرين من عمره آنذاك(69)، وذهابه في عطلة شتاء 1939 إلى منطقة البحيرات التي أعجب بها وذكّرته بإعجابه بالأدب الرّومنطيقيّ منذ السّنة الأخيرة من دراسته في الكليّة الحربيّة سنة 1968(70)، وانتدابه للتّدريس في المعاهد العليا في العراق "في أواخر أيلول من عام 1948 بعد تفاقم النّكبة الأولى في فلسطين"(71)، وحضوره "حفلة تمثيليّة باللّغة الانجليزيّة في قاعة الملك فيصل الثّاني في شهر نيسان من عام 1949"(72)، وزيارته مدينة نمرود الأثريّة عاصمة الأشوريّين في 22 آذار (مارس) 1951(73)، وزيارتها مرّة أخرى في صيف سنة 1986(74)، وبدء الصّداقة بينه وبين علي كمال عام 1938 و1939(75)، وتأسيس جماعة بغداد للفنّ الحديث مع المهندس قحطان عوني وجواد سليم في ربيع عام 1951(76)، وتحوّله إلى الدّار الجديدة في شارع الأميرات في أيلول (سبتمبر) 1962(77)، وعقد قرانه على لميعة العسكري يوم 9 أوت 1952(78)، ثمّ الذّهاب للولايات المتّحدة الأمريكيّة للدّراسة صحبتها بعد الزّواج مباشرة بعد أنْ سبقته هي إلى بيروت وذهب هو إلى القدس لرؤية عائلته.

أمّا الأحداث الموضوعيّة فقد ذكر منها قيام الحرب العالميّة الثّانية يوم 3 أيلول (سبتمبر) 1939(79)، وتفاقم النّكبة الأولى في فلسطين أواخر أيلول 1948(80)، وإعلان الثّورة الفلسطينيّة الكبرى على الإنتداب البريطاني في ربيع عام 1936(81)، وثورة 14 تمّوز (أوت) 1958 في العراق(82)، والعدوان الثّلاثيني على العراق سنة 1991(83)، وقيام ثورة الضبّاط الأحرار في مصر يوم 23 يوليو (جويلية) 1952(84).

**ب. تاريخيّة الأشخاص:**

لقد تعمّدنا اعتماد لفظ "الأشخاص" لا "الشّخصيّات" لأنّنا أمام سيرة ذاتيّة أبطالها حقيقيّون تاريخيّون، أمّا لفظ "شخصيّات" فيحيل على الرّواية والقصّة والأقصوصة التي يكون أبطالها خياليين مصنوعين من حبر وورق، ولا وجود لهم خارج عالم النصّ، وأشخاص "شارع الأميرات" كثيرون، وقد أُثبتوا في آخر الكتاب في فهرس الأعلام، ويمكن أنْ نقسّمهم وفق



University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/891

تقسيمات عديدة، فمنهم العرب والأجانب، ومن العرب الفلسطينيون والعراقيون، ومن الأجانب الانجليز والأمريكان والفرنسيون خاصة، ومن الفلسطينيّين الإخوة والجيران والأصدقاء، ومن العراقيين الزّوجة وأقاربها وأصدقاؤها، وزملاؤه وأصدقاؤه، ومن هؤلاء جميعًا الرّجال والنّساء، ومن هؤلاء أيضًا الأصدقاء والزّملاء، ومنهم المنافسون في الحبّ مثل "ستيف دنكرلي" منافسه في حبّ "غلاديس" في انجلترا، وعدنان المحامي منافسه في حبّ لميعة في بغداد، ومنهم الأدباء والمفكّرون والفنّانون والسياسيّون.

ومن أفراد عائلته في فلسطين ذكر أخاه يوسف اثني عشر مرّة من الصّفحة 56 إلى الصّفحة 244، وذكر أخاه عيسى في الصّفحة 208، وذكر أمّه في الفصل الأوّل حين أشار إلى معارضتها سفرة إلى إنجلترا، وفي المقطع الحادي عشر (11) من الفصل الأخير عندما ذهب لزيارتهم قبل السّفر إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة، ولم يذكر اسمًا لها، وكان ذكر الزّوجة هو المسيطر على هذه السّيرة الذّاتيّة إذ بلغ 75 مرّة، وكانت الأكثر حضورًا لاسيما في الفصل الأخير الذي حمل اسمها، وذكر ابنيه سدير وياسر في الصّفحة 96 حين كان يأخذهما للّعب في الحديقة، وفي الصّفحة 240 حين أشار إلى حفلي زفافهما، وذكر الحفيدة ديما في الصّفحتين 96 و97 لما كان يتمشّى معها في شارع الأميرات في أواسط الثّمانينات.

أمّا الأصدقاء فكثيرون ومن العبث ذكرهم جميعًا، بل يكفي أنْ نشير إلى أهمّهم مثل حلمي سمارة وعلي كمال الطّبيب النّفساني وعدنان رؤوف وبلند الحيدريّ ونزار سليم وجودت سليم وخلدون ساطع الحصري و"دزموند ستيوارت" و"مايكل كلارك" وناثر العمريّ وزوجته ميْ وحسين هدّاويّ وقحطان عوينّ.

## 8 . التّبئير والرّائي في "شارع الأميرات"

لما كانت السّيرة الذّاتيّة سيرة ذاتٍ شخصيّةٍ فهي إذنْ الهدف في السّرد السّير الذّاتي، ومن الطّبيعيّ أنْ يكون حضورها مركزيًّا طاغيًّا على كلّ الصّفحات والمقاطع، وإنْ تخلّى عنها السّارد أحيانًا فلأنّه ينصرف لسرد حدث، أو تصوير شخصيّة، أو فضاء لها كلّها علاقة بالشّخصيّة الأصليّة، ويكون حضور الشّخصيّة الأصليّة إمّا فعليًّا بوجوده في المكان أو الزّمان



University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/891

أو الحدث، وإمّا بوجوده في ثنايا السّرد وإنْ غاب عنه ماديًّا، وبالتّالي تكون هذه الشّخصيّة بؤرة كلّ أركان السّيرة الذّاتيّة، ومن غير الوارد أبدًا أنْ يوجد مقطع سرديّ لا علاقة له به، وهو ما نتبيّنه في "شارع الأميرات" بوضوح، فالمكالمة الهاتفيّة الوحيدة المذكورة في الكتاب والتي جمعت بين لميعة وخالها كانت تخصّ علاقتها بجبرا، وسقوط الكؤوس التي تحملها أمّ لميعة كان بسبب خشيتها منْ علاقة ابنتها بجبرا والتي أشعرتها بقرب فقدانها لها، وصديقه الطّبيب النّفساني علي كمال لمْ يعدْ ذكره في الكتاب بعد خروج جبرا منْ فلسطين واستقراره في العراق إلاّ حين استقرّ بدوره في العراق واستعاد علاقته به.

ويؤدّي التّبئير إلى معطى آخر مرتبط به في السّيرة الذّاتيّة وهو الرّائي غير المنفصل بالضّرورة عن الرّاوي، وطالما أنّ الذّات هي المتذكّرة والسّاردة والنّاظرة إلى الماضي بعين الحاضر، والمقوّمة له، فإنّها ستحكم بالإيجاب على كلّ الأشياء المتعلّقة بها، و دارس "شارع الأميرات" سيكتشف بوضوح احتفاء جبرا بذاته، وإكباره لمسيرة حياته، وإعجابه المفرط بكلّ إنجازاته وفي كلّ الميادين، بلْ إنّ الأغرب منْ ذلك أنّنا لمْ نعثر على أيّ خطأ لهذه الشّخصيّة الطُّلعة وكأنّه لا يريد أنْ يزعزع ثقة القارئ به، ولمْ يوردْ أيّ شيء يشعره مثلاً بالبؤس والشّقاء والحرمان، أو قد يضعه في منزلة المشفق عليه منْ قبل القارئ، وكأنّه يكرّس ما قال "ترولوب": "إنّه من المستحيل في نظري أنْ أقول عن نفسي أو يقول أيّ إنسان عن نفسه كلّ شيء، فمنْ منّا يجرأ على الاعتراف بأنّه قد اقترف عملاً دنيئًا، ومنْ لمْ يقترف عملاً دنيئًا؟"(85).

وجعل التّبئير جبرا في "شارع الأميرات" كأبطال الرّوايات الخارقين الذين لا تهزّهم الأحداث، ولا تعرقلهم الأيّام، ولا تهزمهم الظّروف، فقد كان أكثر الطّلبة تفوّقًا في الكليّة العربيّة بالقدس زمن الثّلاثينيّات، وأفضل الطلاّب الذين أرسلوا إلى إنجلترا لمتابعة الدّراسة الجامعيّة رغم عسر الحياة في فلسطين وتحدّى أخطار الحرب العالميّة وسافر إلى انجلترا لمتابعة دراسته العليا، ولمْ تمنعه قسوة الغربة منْ أنْ يكون أيضًا أكثر الطّلبة الأجانب نجاحًا بامتياز في الجامعة الانجليزيّة زمن الأربعينيّات، وكان أستاذ الأدب الانجليزيّ الأنجح والأنشط في فلسطين على المستويات الوظيفيّة والاجتماعيّة والعلميّة، وكان أيضًا الأستاذ اللاّمع المثابر النّاجح في العراق رغم غربته عنه وحداثة عهده به، وهو المبادر دون غيره ببعث النّوادي الثّقافيّة الكثيرة، والممارس لتتعدّد



University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/891

النّشاطات والاهتمامات في الجامعة وخارجها، وكان أيضًا الإنسان الاجتماعيّ القادر بسهولة على تكوين الصّداقات والانخراط في الفضاء الجامعيّ وفي المجتمع العراقيّ ككلّ، وقد أبهر المحيطين به بسعة ثقافته وحرصه الكبير على تحديث الثّقافة العربيّة، مثلما رسم نفسه في صورة المبدع في كلّ مجالات الأدب باللّغتين العربيّة والإنجليزية، والمبدع في مجال الرسّم العارف بمجال الفنون التشكيليّة، والفنّان العاشق للموسيقى الكلاسيكيّة المتقن للعزف على بعض الآلات الموسيقيّة، وكان أيضًا القادر على التّأثير في الطّلبة فسايروه في الإعجاب بالفنون والآداب، دون أنْ ننسى أنّه جعل نفسه الإنسان المحبوب من قبل الرّجال والنّساء كبارًا وصغارًا، وليس أدلّ على ذلك من أنّ إحدى التّلميذات في كنيسة كاثوليكيّة في إنجلترا كانت تهرب من مدرستها لمقابلته، وأنّ صديقته الانجليزيّة "غلاديس نيوبي" نفرت منْ خطيبها لتتعلّق به، وأنّ إحدى الحاضرات عرضًا مسرحيًّا تعلّقت به بسرعة قياسيّة وشبّهته بـ"هاملت"، بلْ إنّ أمّ لميعة وجِلت منه أوّل ما رأته وأحسّت بأنّه سيفتكّ منها ابنتها، ثمّ هو الرّجل الذي فضّلته لميعة على كلّ الرّجال في العراق رغم أنّه الغريب (L' étranger) المشرّد من وطنه المحتلّ، الكادح الذي لا مال وفير عنده، فكانت صورة جبرا التي رسمها لنفسه هي صورة الإنسان المكافح المتغلّب على العراقيل والصّعاب في سبيل تحقيق أحلامه، وترسيخ وجوده، وتأصيل كيانه، وقد حقّق كلّ النّجاحات الممكنة في كلّ المجالات، وفي كلّ الأزمنة والأمكنة.

ولمْ يتعلّق التّبئير في "شارع الأميرات" بالجانب الذّاتي لشخصيّة جبرا فحسب، بلْ شمل الجانب الموضوعيّ الذي يتعلّق بالعالم الواقعيّ الذي عاش فيه الكاتب ونقصد به الجانب البشريّ والمادّيّ، أمّا عن الجانب البشريّ فنظفر بتركيز جبرا المفرط على شخصيّة لميعة التي كان لها تأثير كبير باهر في حياته المعنويّة والمادّيّة، فهي المرأة التي أحبّته رغم غربته، وقبلت الزّواج منه رغم معارضة خالها الأرستقراطيّ، وتركت عملها بالجامعة ولحقت به إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة حين سافر للحصول على شهادة في النّقد الأدبيّ، ومنْ عمق تأثيرها فيه أيضًا أنّه ترك المسيحيّة واعتنق الإسلام ليتحقّق زواجهما، وهذا ما جعله يخصّص لها الفصل السّادس كاملاً ويسمّيه باسمها "لميعة والسّنة العجائبيّة".



University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/891

أمّا ما تعلّق بالجانب المادّيّ فنلمح التّبئير منْ خلال عدم اكتفاء جبرا بالتّركيز على حياته الذّاتيّة وفتح بعض النّوافذ على أوضاع بعض الأقطار العربيّة وهي تخوض حرب التّحرّر من الاستعمار مثل مصر التي قضى فيه الضبّاط الأحرار في 23 يوليو منْ سنة 1952 على النّظام الملكيّ دون إراقة دماء، وفلسطين التي كان شعبها يخوض نضالاً مستميتًا ضدّ العصابات الصّهيونيّة(86) التي كانت تتمدّد شيئًا فشيئًا في الأرض الفلسطينيّة ممارسةً شتّى أنواع الإرهاب عليه، ولعلّ التّبئير الأوضح كان على العراق منْ خلال إبراز جبرا كيفيّة حسن توظيف هذا القطر الثّورة البتروليّة في تحقيق النّهضة العلميّة والفكريّة، فقد أُنفقت الأموال على تطوير التّعليم والعلم والمعرفة والثّقافة، فأسّست الجامعة العراقيّة، وانتُدب أكفأ الأساتذة من العراقيّين والعرب، وبُعثت الجمعيّات الثّقافيّة، وتمتّع المثقّفون بالحريّة لخوض غمار الحداثة الفكريّة والأدبيّة الشّاملة.

وفي هذا الإطار بالذّات كشف جبرا صورة الثّقافة العربيّة في أواخر النّصف الأوّل من القرن العشرين، وهي تصارع من أجل الخروج من طور التّقليد إلى طور التّأسيس والتّحديث، وتَصارع القوى الحداثيّة المتحمّسة لتحديث الثّقافة العربيّة متأثّرة أو منبهرة بالثّقافة الغربيّة الوافدة، مع القوى المحافظة الرّافضة لأيّ تحديث يأتي منْ خارج دائرة الفضاء العربيّ الإسلاميّ، وقد ذكر صديقًا فلسطينيًّا له كان ينتمي إلى "حركة سياسيّة تدعو إلى رفض العرب للحضارة الحديثة والعودة إلى الصّحراء، منبع قوتهم"(87)، ولعلّ جواد سليم عبّر عن ثورة في عالم الفنّ التّشكيليّ والمعماريّ، وبلند الحيدريّ عكس ثورة الحداثة في الشّعر، مثلما كان خلدون ساطع الحُصريّ ممثّلاً للحداثة في الفكر، دون أنْ ينسى إبراز مشاركة المرأة العربيّة الفاعلة في هذه المسيرة الحداثيّة منْ خلال حضورها في مجالي التّعليم والثّقافة إذْ تمكّنت في العراق منْ أنْ تكون أستاذة جامعيّة منذ أواخر النّصف الأوّل من القرن العشرين.

ومنْ خلال ما تقدّم تفصيله نتبيّن مقاصد الكتابة التي رام جبرا إبراهيم جبرا تحقيقها منْ "شارع الأميرات"، مستنيرين بقوله هذا: "يتذكّر المرء عشرات السّير الذّاتيّة، وكتب الاعترافات التي خلّفها أدباء العالم، فيدهش لهذا الشّحّ في اعترافات أدبائنا، وفي محاولاتهم فهم حياتهم، أو وصلها بأزمانهم"(88)، وهو يطالب الكتّاب العرب بكتابة سيرهم الذّاتيّة، وأوّل هذه



University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/891

المقاصد تأمّل مسارات حياتهم الذّاتيّة وفهمها، وكشفها للمتقبّل الذي يروم دومًا معرفة حياة الشّخصيّات العامّة، والاطّلاع على بعض تفاصيلها الدّقيقة، وتلبية مطلب فضوله، ثمّ تأكيد مكانته الرّمزيّة في المجتمع، والانبهار بتلك المسيرة الحياتيّة، ودفع المتقبّل منْ جهة أخرى إلى الاحتذاء به لتحقيق المكانة الأفضل وتحدّي الصّعاب التي تواجهه، إضافةً إلى جعل تلك السّيرة الذّاتيّة ميدانًا لنشر الأفكار الحداثيّة، والدّعوة إلى وضع حدٍّ لاجترار التّقليد الذي يعطّل تقدّم الأقطار العربيّة.

- **الخاتمة**

إنّ ما تمّ التّطرّق إليه في هذا البحث يؤدّي بنا إلى القول بأنّ جبرا إبراهيم جبرا قد أتقن كتابة السّيرة الذّاتيّة في أثره "شارع الأميرات" بتمثّل خصائصها وشروطها ووظائفها، وتمكّن منْ تحويل قصّة حياته إلى أثر أدبيّ يجد القارئ لذّة في قراءته، دون أنْ يسقط في كتابة التّاريخ الشّخصيّ بأسلوب مادّي جافّ، وقد راوح بين التّعبير عنْ عالمه الذّاتيّ بتفصيلاته الاجتماعيّة والعلميّة والمهنيّة والفكريّة والنّفسيّة والعاطفيّة، والتّعبير عنْ العالم الموضوعيّ الذي عايشه بأناسه وأحداثه، وتشخيص بعض الأحداث العربيّة والعالميّة، ودوره الكبير في تجذير معالم الحداثة الثّقافيّة العربيّة في القرن العشرين، رغم ندرة التّفصيل في هذا الجانب أحيانًا وكان بالإمكان توظيفه لتعميق الجانب الموضوعيّ في الكتاب، ومهما يكنْ منْ أمرٍ فإنّ جبرا إبراهيم جبرا أثبت نفسه في الثّقافة العربيّة الحديثة كاتبًا مبدعًا، ومفكّرًا جريئًا، وإنسانًا متميّزًا جديرًا بالاحتذاء، وأثبت جدارة سيرته بالقراءة والتّحليل والتّأويل لأنّها أثبتت ترسّخ هذا النّوع الأدبيّ في الأدب العربيّ الحديث، وقدرته على أنْ يكون جامعًا بين الإخبار عنْ جوانب مهمّة منْ حياة المبدع، ومعرفة أسرار نجاحاته المتعدّدة، والمرحلة التّاريخيّة الدّقيقة التي عاش فيها.

**الهوامش:**

1 . شكري المبخوت، سيرة الغائب، سيرة الآتي، السّيرة الذّاتيّة في كتاب الأيّام لطه حسين، دار الجنوب للنّشر، تونس، 1992، ص19.

2 . شكري المبخوت، المرجع نفسه، ص23.

3 . انظر كتابه: التّرجمة الذّاتيّة في الأدب العربيّ الحديث، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان، 1975، الفصل الثّاني (لمحة عن التّرجمة الذّاتيّة في التّراث العربيّ)، ص30 وما بعدها.



University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/891

4 . المرجع السّابق ، ص108.

5 . يحي إبراهيم عبد الدّايم، المرجع نفسه، ص32.

6 . عبد العزيز شرف، أدب السّيرة الذّاتيّة، الشّركة المصريّة العالميّة للنّشر، الجيزة، مصر، 1992، ص5.

7 . أورده شكري المبخوت، سيرة الغائب، سيرة الآتي، السّيرة الذّاتيّة في كتاب الأيّام لطه حسين ، ص14.

8 . عنْ جورج ماي، السّيرة الذّاتيّة، تعريب محمّد القاضي وعبد الله صولة، بيت الحكمة، تونس، 1992، ص14.

9 . تهاني عبد الفتّاح شاكر، السّيرة الذّاتيّة في الأدب العربيّ، فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عبّاس نموذجًا، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى 2002، ص9.

10 . ذهبنا إلى هذا الرّأي لأنّ الكاتبة استندت إلى تعريف "فيليب لوجون" الذي يُعدّ الأكثر شهرةً بين النّقّاد والدّارسين.

11 . تهاني عبد الفتّاح شاكر، السّيرة الذّاتيّة في الأدب العربيّ، فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عبّاس نموذجًا، ص16.

12 . جبرا إبراهيم جبرا، شارع الأميرات، تقديم عبد الرّحمان مُنيف، دار الآداب، بيروت، الطّبعة الأولى، 2007، ص21.

13 . جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص21.

14 . جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص21.

15 . حسن بحراويّ، أنساق الميثاق الأوطوبيوغرافي، السّيرة الذّاتيّة بالمغرب نموذجًا، مجلّة آفاق، المغرب، العدد 3، 4، سنة 1984، ص44.

16 . عبد الله إبراهيم، السّيرة الذّاتيّة، إشكاليّة النّوع والتّهجين السّرديّ، مجلّة نزوى، العدد14، سنة 1998، ص18.

17 . انظر: خليل شكري هياس، سيرة جبرا الذّاتيّة في "البئر الأولى" و"شارع الأميرات"، ص23.

18 . جبرا إبراهيم جبرا، شارع الأميرات، ص71.

19 . جبرا إبراهيم جبرا، المصدر السّابق، ص214.

20 . جبرا إبراهيم جبرا، المصدر السّابق، ص253.

21 . لقد شذّ طه حسين في "الأيّام" عن القاعدة العامة التي أقرّها الكتّاب والنقّاد، وفصل فصلاً واضحًا مقصودًا بين الأعوان الثّلاثة.

22 . سيرة الغائب، سيرة الآتي، ص14. نظر: جبرا إبراهيم جبرا، شارع الأميرات، ص71.

23 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، شارع الأميرات، ص71.

24 . خليل شكري هياس، سيرة جبرا الذّاتيّة في "البئر الأولى" و"شارع الأميرات"، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2001، ص ص19، 20.

25 . جورج ماي، السّيرة الذّاتيّة، ص83.

26 . المرجع نفسه، ص84.



University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/891

27 . شارع الأميرات، ص117.
28 . جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص83.
29 . المصدر نفسه، ص ص51، 52.
30 . المصدر نفسه، ص41.
31 . المصدر نفسه، ص238.
32 . المصدر نفسه، ص219.
33 . المصدر نفسه، ص80.
34 . المصدر نفسه، ص81.
35 . المصدر نفسه، ص179.
36 . المصدر نفسه، ص97.
37 . المصدر نفسه، ص229.
38 . المصدر نفسه، ص119.
39 . المصدر نفسه، ص267.
40 . انظر: خليل شكري هياس، سيرة جبرا الذّاتيّة في "البئر الأولى" و"شارع الأميرات"، ص ص21، 22.
41 . انظر: جبرا إبر اهيم جبرا، شارع الأميرات، ص56.
42 . المصدر نفسه، ص56.
43 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص133.
44 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص178.
45 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص229.
46 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص174.
47 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص176.
48 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص179.
49 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص240.
50 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص250.
51 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص260.
52 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص83.
53 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص93.
54 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص95.
55 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص97.
56 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص96.
57 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص98.
58 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص100.



University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/891

59 . جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص122.

60 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص122.

61 . جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص123.

62 . انظر: خليل شكري هياس، سيرة جبرا الذّاتيّة في "البئر الأولى" و"شارع الأميرات"، ص18.

63 . انظر: خطاب الحكاية، بحث في المنهج، ترجمة مجموعة من النّقّاد، المشروع القوميّ للتّرجمة، الطّبعة الثّانية، 1997، ص21.

64 . جورج ماي، السّيرة الذّاتيّة، ص95.

65 . جبرا إبراهيم جبرا، شارع الأميرات، ص234.

66 . جورج ماي، السّيرة الذّاتيّة، ص94.

67 . جبرا إبراهيم جبرا، شارع الأميرات، ص259.

68 . جليلة الطّريطر، مقوّمات السّيرة الذّاتيّة في الأدب العربيّ الحديث، مركز النّشر الجامعيّ، مؤسّسة سعيدان للنّشر، تونس، 2004، ص218.

69 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، شارع الأميرات، ص39.

70 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص55.

71 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص69.

72 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص77.

73 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص80.

74 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص88.

75 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص89.

76 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص93.

77 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص92.

78 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص238.

79 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص25.

80 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص69.

81 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص88.

82 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص94.

83 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص98.

84 . انظر: جبرا إبراهيم جبرا، المصدر نفسه، ص234.

85 - عنْ جورج ماي، السّرة الذّاتيّة، ص96.

86 . انظر على سبيل المثال: جبرا إبراهيم جبرا، شارع الأميرات، ص89.

87 . جبرا إبراهيم جبرا، المصدر السّابق، ص202.



University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/891

88 . جبرا إبراهيم جبرا، ينابيع الرّؤيا، دراسات نقديّة، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، 1979، ص186.

- المصادر والمراجع

1. المصدر

جبرا (إبراهيم جبر)، شارع الأميرات، تقديم عبد الرّحمان مُنيف، دار الآداب، بيروت، الطّبعة الأولى، 2007.

2. المراجع

. إبراهيم (عبد الله)، السّيرة الذّاتيّة، إشكاليّة النّوع والتّهجين السّرديّ، مجلّة نزوى، العدد14، سنة 1998.

. الطّرّيطر (جليلة)، مقوّمات السّيرة الذّاتيّة في الأدب العربيّ الحديث، مركز النّشر الجامعيّ، مؤسّسة سعيدان للنّشر، تونس، 2004.

. المبخوت (شكري)، سيرة الغائب، سيرة الآتي، السّيرة الذّاتيّة في كتاب الأيّام لطه حسين، دار الجنوب للنّشر، تونس، 1992.

. بحراويّ (حسن)، أنساق الميثاق الأوطوبيوغرافي، السّيرة الذّاتيّة بالمغرب نموذجًا، مجلّة آفاق، المغرب، العدد 3، 4، سنة 1984.

. جبرا (إبراهيم جبرا)، ينابيع الرّؤيا، دراسات نقديّة، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، 1979.

. جينيت (جيرار)،خطاب الحكاية، بحث في المنهج، ترجمة مجموعة من النّقّاد، المشروع القوميّ للتّرجمة، الطّبعة الثّانية، 1997.

. شاكر (تهاني عبد الفتّاح)، السّيرة الذّاتيّة في الأدب العربيّ، فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عبّاس نموذجًا، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى 2002.

. شرف (عبد العزيز)، أدب السّيرة الذّاتيّة، الشّركة المصريّة العالميّة للنّشر، الجيزة، مصر، 1992.

. عبد الدّايم (يحي إبراهيم)، التّرجمة الذّاتيّة في الأدب العربيّ الحديث، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان، 1975.

. ماي (جورج)، السّيرة الذّاتيّة، تعريب محمّد القاضي وعبد الله صولة، بيت الحكمة، تونس، 1992.

. هياس (خليل شكري)، سيرة جبرا الذّاتيّة في "البئر الأولى" و"شارع الأميرات"، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2001.



University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/891